



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 28-02-2026

تاريخ القبول: 06-04-2026

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

العلامة محمد بن أبي شنب ومنهجه في تحقيق التراث اللغوي

The Scholar Muhammad ibn Abi Shunab and His Methodology in Editing the linguistic heritage

د. زين عبد القادر

جامعة الجلفة (الجزائر)

aek.zine@yahoo.fr

الملخص: تُعد كتب التراث اللغوي التي اضطلع المحقق العلامة محمد بن أبي شنب بنشرها فتحا في تحقيق المخطوطات العربية ونقلها إلى عالم المطبوعات وفق القواعد الحديثة لتحقيق المخطوطات كما شاع عند الغرب بعد اكتشاف آلة الطباعة ، فما الذي سبق إليه هذا المحقق وجعل الكثير من المستشرقين يتبعونه فيه ؟ وما الذي أخذه من مناهج علماء الحديث المسلمين؟ هذا ما تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عنه من خلال الوقوف على محطات حياته والروافد التي أسهمت في تكوين شخصيته العلمية ، مع تتبع منهجه في تحقيق كتاب "الجمال في النحو" كأ نموذج يحتذى به .

الكلمات المفتاحية: محمد بن أبي شنب ، التراث اللغوي ، أبو إسحاق الزجاجي ، كتاب الجمل.

ABSTRACT

The linguistic heritage works published by the distinguished scholar and editor Muḥammad ibn Abī Shanab represent a landmark in the critical editing of Arabic manuscripts and their transition into the world of print in accordance with the modern principles of textual editing that became widespread in the West following the invention of the printing press. This study seeks to examine the innovations introduced by this editor that led many Orientalists to follow his approach. It also investigates the extent to which he drew upon the methodologies of Muslim ḥadīth scholars in developing his editorial practice.

The paper addresses these questions by examining the key stages of his life and the intellectual influences that shaped his scholarly formation, while analysing his method in editing *al-Jumal fī al-Naḥw* as a model worthy of emulation.

Keywords: Muḥammad ibn Abī Shanab; linguistic heritage; Abū Ishāq al-Zajjājī; *al-Jumal*.

1. مقدمة :

ظهر العلامة محمد بن أبي شنب في فترة استعمارية بغیضة ، خیم فیها الجهل والفقر علی ربوع الجزائر ، وهذا الركود العلمي والثقافي حز في نفوس كثير من المصلحين ولم يطق بعضهم البقاء مكتوف الأيدي ، فبادر الإمام عبد الحميد بن باديس بإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 والتف حوله ثلة ممن يحملون نفس الانشغال ، ولم يكن ابن أبي شنب بعيدا عنهم زمانا وتوجها ، فراح يبذل الجهود المضنية لكي تستعيد البلاد نهضتها وأسباب قوتها ، وقسم نشاطه على ثلاث جبهات ؛ التعليم الجامعي والتدريس المسجدي والتأليف التراثي ؛ ففي التأليف مثلا زود المكتبة بعشرات المؤلفات بين تحقيق وترجمة مما ينم عن باع طويل وحظوة زرقها ، ويأتي كتاب "الجمال" على رأس الكتب التراثية اللغوية التي حرص المحقق على إخراجها للنور بعد أن ظلت حبيسة الأدراج ردحا طويلا من الزمن ، فإذا روعيت سنة طبع كتاب "الجمال" هذا (1927م) علم أن نشر الكتب التراثية محققة بدأ في وقت مبكر في المغرب العربي ولم يتأخر عن صنوه المشرقي رغم الظروف التي كانت تمر بها بعض دوله ، ووقع اختيار المحقق على كتاب "الجمال" رغم كثرة الكتب التي لم تحقق في زمانه لأهمية الكتاب ولذيق صيته قديما وحديثا وتناول العلماء له على مر العصور ، بالشرح تارة وبالاختصار تارة وبشرح شواهد تارة أخرى ، أوريا لرغبته في أن تعود عليه بركته لأنه أشيع أن مامن أحد اشتغل بهذا الكتاب إلا وعادت عليه بركاته لدعاء المؤلف بذلك .

وقبل المرور إلى نص "الجمال" محققا على يد هذا العلامة واستجلاء مظاهر خدمته لهذا النص ، ارتأيت أن أبدأ هذه المقالة بنبذة عن حياة المحقق ، والأصول الفكرية التي صقلت شخصيته العلمية ؛ إذ كثيرا ما لا يوحى اسمه بشيء لبعض شدة العلم اللهم إلا لمن سكن ولاية المدية مسقط رأسه ، إذ توجد ثانوية قديمة سميت باسمه تخليدا لذكراه ، ولم يفرد أحد بترجمة سوى الفقيه عبدالرحمن الجيلالي رحمه الله تعالى الذي سمي كتابه "محمد بن أبي شنب حياته وآثاره" أما عدا ذلك فهي شذرات مبعثرة في كتب أهل التراجم لم تتعد الأسطر في بعض الحالات أسهم فيها مشاركة أمثال محمد كرد علي وخير الدين الزركلي وعادل نويهض ويوسف إليان سركيس ، كما نهض بعض المؤرخين الجزائريين بكتابة ترجمة محتشمة لم تأت بمجديد عن حياة المترجم له أكثر مما فعلت الترجمات المشرقية المشار إليها آنفا ، ومن بين هؤلاء المؤرخ بلقاسم سعد الله وأبو عمران الشيخ ، ومن الغريب أن كتاب عبدالرحمن الجيلالي لم يُعد طبعه مرة ثانية رغم مرور أكثر من أربعين سنة على طبعته الأولى (1983) في المؤسسة الوطنية للكتاب ، وأخيرا أُلُفِت إليه بملتقين دوليين أحدهما انعقد بجامعة الجزائر سنة 2009 تحت اسم "محمد بن أبي شنب المرجعية الثقافية والبعث الفكري" والثاني بجامعة المدية سنة 2013 حمل اسم "الدكتور محمد بن شنب والحادثة" غير أن هذا لا يفني عالمنا حقه ، فهو قامة سامقة لم تنل حقها من الإشادة والتبجيل والتعريف بالأعمال الخالدة التي تركها .

2. حياة محمد بن أبي شنب وروافده الفكرية :

هو محمد بن العربي أبي شنب ولد عام 1869م في (فحص) إحدى قرى مدينة المدية التي هي ولاية من ولايات الجمهورية الجزائرية تبعد عن العاصمة بحوالي 80 كلم إلى الجنوب ، وكان والده ميسور الحال ومن أعيان المزارعين في المنطقة وجدته لأبيه ينحدر من أصول تركية ذات شرف ومجد من بلدة بروسة عمل في الجيش العثماني إلى أن تقاعد ، ويرجع تاريخ انتقال هذه الأسرة إلى الجزائر إلى أوائل القرن الثامن عشر (الزركلي، الأعلام، 1986، ص: 266/6)

نشأ محمد بن أبي شنب في حجر والديه مدللاً مقدماً على إخوته وأقرانه مُعتنى به من قبل أهله وذويه ؛ وذلك لما ظهر عليه من مخايل الفطنة وعلامات النباهة ، ولما بلغ سن التمييز ألحقه والده بالكتاتيب القرآنية فأخذ شيئاً من القرآن ثم اشتغل بعد ذلك ببقية العلوم وتعلم اللغة الفرنسية بالمدرسة الابتدائية بالمدينة إلى أن حصل على شهادتها فارتقى منها إلى الثانوية المسماة آنذاك (الكوليج) فأخذ ينهل من منابع العلم الثرة ما أسعفه الوقت لذلك حتى تشبع بالمعارف فتخرج فيها متحصلاً على مبادئ كثير من العلوم كاللغة والفلسفة والحساب والطبيعات والجغرافية والتاريخ وغيرها ، وبمدرسة هذه العلوم تربت في نفسه ملكة الذوق العلمي فاشتاق روحه إلى الاستزادة من العلم والتمكن منه ، فسافر منفرداً من المدينة إلى العاصمة في عام 1886م والتحق بمدرسة المعلمين ببوزريعة وهي ما يعرف الآن بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة ، وكان مواظباً على حضور دروسها لا يتخلف إلا لعذر مع دماثة خلق ولين جانب وتواضع مشهود له به ، إلى أن تخرج أستاذاً في اللغة الفرنسية مع براعته في الرسم كهواية تفتقت أثناء تواجده بالعاصمة يقضي فيها أوقات فراغه (أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، 1995، ص: 307)

عين في بداية أمره معلماً بمدرسة ابتدائية بقرية سيدي علي قرب المدينة فدرّس فيها أربع سنوات إلى سنة 1892م وهو مع معاناته لأتاعاب التعليم لم يأل جهداً في جمع المعارف وتحصيلها فدرّس علوم البلاغة والمنطق والتوحيد وعلم الكلام على يد الأستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية ، وكثيراً ما كان يرجع الشيخ عبد الحليم إلى تلميذه محمد قائلا: « ما علمت في حياتي كلها أحدا يرجع إلى تلميذه غيري وإني لمعترف له بالفضل والنبوغ » (كرد علي، المعاصرون، 1993، ص: 342) وباجتهاده وكده تمكن العلامة ابن أبي شنب من التضلّع في علوم العربية وآدابها ودقائقها وأخذها أخذاً محكماً ، أما أخبار العرب وشعرائهم وتراجم رجالهم وأنسابهم ومعرفة طبقاتهم فله في ذلك القدح المعلن ، وهو ما يظهر جلياً في تحقيقه لبعض دواوين شعراء العربية كديوان امرئ القيس وديوان عروة بن الورد وديوان علقمة الفحل وديوان أبي دلالة أو تحقيقه لكتب الطبقات وكتب اللغة وعلى رأسها كتاب " الجمل " الذي سنفصل الحديث عن منهجه في تناول نصوصه ، كما أتقن إلى جانب اللغة العربية اللغة الفرنسية حتى يخاله من يسمعه يتكلمها من أبنائها البررة المحتفين بها ، فضلاً عن لغة أسلافه التركية وكذا الإسبانية والألمانية واللاتينية، وفي 1898م عين أستاذاً بالمدرسة الكتانية في مدينة قسنطينة خلفاً للشيخ عبد القادر المجاوي عندما انتقل إلى التدريس بالمدرسة الثعالبية بالجزائر، ثم التحق هو كذلك بالثعالبية مدرّساً إلى جانب شيخه المجاوي فدرّس فيها اللغة والنحو والصرف والمنطق والعروض والبيان وغيرها (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص: 168/8)

وبعد عامين من ذلك أراد أن يتم شطر دينه فتزوج بآبنة إمام الجامع الكبير ورزق منها بتسعة أبناء بين ذكور وإناث ، ولم تقل هذه الالتزامات عزمته ولم توهن من سعيه في طلب العلم ونشره ، فلاح نجمه في الآفاق وشهد له الأبعاد والرفاق ، وتقاطرت عليه المكاتبات والرسائل من كبار العلماء والأدباء ومشاهير المؤلفين من الأقطار العربية والغربية، وكان من أشهر مراسليه العلامة أحمد تيمور باشا من مصر، وأعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ومنهم رئيسه محمد كرد علي ، ومستشرقون منهم الفرنسي هنري بيرس والألماني فريتس كرنكو والروسي كراتشوفسكي وغيرهم (نويهض، معجم أعلام الجزائر، 1980، ص: 190) وفي سنة 1920م انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً به ، فتسنى لابن أبي شنب أن ينشر في مجلة المجمع العلمية ببحوثه اللغوية والتاريخية والأدبية، وفي عام 1922 تقدم لنيل شهادة الدكتوراه بدراسة لغوية عن الشاعر العباسي أبي دلالة ، فنال الدرجة العلمية بامتياز وعين أستاذاً رسمياً في كلية الآداب الكبرى بالعاصمة وترك المدرسة الثعالبية بعدما قضى فيها معلماً ومرشداً مدة 23 سنة.

وما زال يحظى بثقة المجالس العلمية الفرنسية لعلمه الغزير وقوة شخصيته ؛ إذ كثيرا ما كانت تعينه عضوا في لجائها العلمية وما زال على هذه الحال إلى أن ألمّ به مرض أقعده عن الحركة وأدخل إثره إلى مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة ليوفيه الأجل يوم الثلاثاء 5 فيفري 1929م عن عمر يناهز الستين سنة ، وكان يوم جنازته يوما مشهوداً حضر فيه رئيس الجامعة ونائبه وعميد كلية الآداب وأساتذة الكليات الأربع بملايسهم الرسمية وباقي مدرسي المدارس وأعيان البلد وعامتهم ، تاركاً الكثير من الآثار التي تجاوزت الخمسين ما بين تأليف وتحقيق (سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرية، 1928، ص: 1626).

2.2. شهادات معاصري ابن أبي شنب فيه

من شهادات الذين عاصروه أنقل ما ذكره العلامة محمد كرد علي بعد أن التقى به في مؤتمر المشرقين في أكسفورد وهو يلقي أحد بحوثه فقال : « شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المشرقين وهو في لباسه الوطني ؛ عمامة صفراء ضخمة وبنار عريض وسراويل مسترسله ومعطف من صنع بلاده ، فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه وطننتي أستمع عالماً من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة إسلامية أو عالماً من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان ووفر له قسطاً من العلم والبصيرة وقد فطر على ذكاء وفضل غرام بالتحصيل وقبض له أن يجمع بين ثقافتين ينبغ ويفصح في كل لغة بمعانيها » (محمد كرد علي، المعاصرون، ص: 341) وبمثل هذا الإطراء المستحق ذكره الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي وأستاذة الشيخ عبد الحليم بن سماية ، وطلباً للاختصار أورد ما شهد به مستشرقان - فالفضل ما شهد به الأبعاد - وأنقل في هذه العجالة شهادات نقلها أبو القاسم سعد الله حيث نقل قول الأستاذ مارتينو : « إذا كان ابن أبي شنب قليل النظير في الجزائر فهو عديم المثال في فرنسا » ، وقول المستشرق الفرنسي ألفريد : « كان ابن أبي شنب مخلصاً لدينه و متمسكاً بلباسه التقليدي ولكي لا يتنكر لتقاليد الإسلام لم ير من واجبه أخذ الجنسية الفرنسية مما يجبره على التخلي عن الشرائع الإسلامية وعن منزلته الشخصية » ، وفي تأنيبه ينقل قول مدير كلية الآداب في جامعة الجزائر : « إن المنهج الذي نصح به ابن أبي شنب يدل دلالة واضحة على مقدار ما يستطيع أن يعمل العقل والعمل في الارتفاع من أصغر المناصب إلى أعظمها وإني أود أن يوقر هذا المنهج شباب هذه البلاد وشباب فرنسا نفسها » (سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص: 172/8).

3. عناية محمد بن أبي شنب بكتب التراث اللغوي

أما الكتاب الذي تناوله محمد بن أبي شنب بالتحقيق والذي نريد استجلاء منهجه في تحقيقه فهو واحد من عدة كتب تراثية لغوية ، فالحقق ضبط روايات كتاب "تجريب الموشين في التعبير بالسین والشین" ونشر منظومة الجعبري المسماة "تدميث التذكير في التأنيث والتذكير" ونشر شرحاً صغيراً لـ "مثلثات قطرب" فضلاً على تنقيحه لمعجم لغوية باللغة العربية والفرنسية كتبته لأغلاط معجم "لسان العرب" وعنايته بمعجم "بوسي" وزيادته لبعض مواد غير أن الكتاب الذي برز فيه منهجه في التحقيق بشكل جلي هو كتاب "الجمال في النحو" للعالم النحوي أبي القاسم الزجاجي، وهذه نبذة عن حياته.

4. أبو القاسم الزجاجي وكتابه " الجمل في النحو "

ترجمة أبي القاسم الزجاجي

أبو القاسم الزجاجي ترجم له عدد من كبار العلماء المتقدمين والمتأخرين ، فنادرا ما يخلو كتاب من كتب التراجم القديمة من إفراجه بترجمة ، وكتب كثير من الأساتذة والباحثين دراسات عن شخصيته العلمية ، وكتبوا عن منهجه في بعض كتبه كـ «الجمل» و«الإيضاح» ، كما كتب كثير من الباحثين دراسات عن مناهج بعض شراح "الجمل" كابن عصفور وابن خروف وابن الفخار، وابن بزيّة التونسي وغيرهم ، ودرس جماعة من الباحثين اعتراضات بعض شراحه على "الجمل" ، وفي المقابل انتصر عدد آخر للزجاجي على خصومه ، مثلما فعل ابن الضائع في رد اعتراضات البطلانيّ على الزجاجي في مواضع كثيرة ، إلى غير ذلك مما كُتِبَ عنه من الكتب والدراسات والأبحاث، ولذلك لن أطيل في الترجمة له ، فليس غرضي هنا دراسة شخصيته ، ولا بحث منهجه ولا منهج شرح كتابه "الجمل" ، بل الغرض دراسة منهج ابن أبي شنب في تحقيق كتابه الذي طبقت شهرته الآفاق فهو كتاب جليل القدر، من أقدم مصادر النحو وأوثقها وأوفاهها بمسائله ، ولم يسبقه إلى هذه التسمية إلا كتاب "الجمل في النحو" المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة 170 هـ مع خلاف في تحقيق هذه النسبة.

فهو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي كنيته أبو القاسم ، من أهل الصيمرة انتقل إلى بغداد ولزم أبا إسحاق الزجاج ، فغلب عليه لقب الزجاجي ؛ قرأ عليه النحو، وانتقل إلى الشام فأقام مدة بحلب، ثم أقام بدمشق وصنف بها مصنفات كثيرة أشهرها كتاب "الجمل"، وهو كتاب مبارك ما اشتغل به أحد إلا انتفع، وقد روي أن الزجاجي صنف كتابه الجمل في مكة ، وكان إذا فرغ من باب طاف به أسبوعاً، ودعا الله أن يغفر له وأن ينفع به قارئه، وظل هذا الكتاب كتاب المصريين وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام إلى أن اشتغل الناس بـ "اللمع" لابن جني و "الإيضاح" لأبي علي الفارسي (يعقوب، المعجم المفصل في اللغويين العرب، 1997، ص: 374/1)

ورغم تعرض البطلانيّ له بالنقد في كتاب سماه "الحلل في إصلاح الخلل الواقع في كتاب الجمل"، إلا أنه أشاد بالزجاجي وعلمه في مقدمته فقال : « وهو لعمري كتاب قد أُتِجَ وَأَعَارَ، وَطَارَ فِي الْآفَاقِ كُلِّ مَطَارٍ...ونحن وإن تعقبنا بعض ألفاظه ، واعترضنا في نكت من مقاصده وأغراضه؛ مُعْتَرِفُونَ له بالبراعة، وأنه من أئمة الصّناعة ؛ فإننا بكتابنا افتتحنا النظر في هذا العلم، وهو الذي رشح بصائرنا لما مُنَحْنَاهُ مِنَ الْفَهْمِ » (البطلانيّ، الحلل، 1980، ص: 57)

كتاب "الجمل في النحو" ومكانته

إذا تأملنا الكتب التي كانت تُدرّس قديماً، وقارنا أسلوبها في عرض المادة النحوية بأسلوب "الجمل" عرفنا سر إقبال العلماء عليه دزناً وتدرّساً ، فهو كتاب تعليمي بامتياز، وقد كان واسع الشهرة والانتشار، فهو أفضل كتاب تعليمي في عصره إلى عصور متأخرة ، لما يتميز به من أسلوب واضح بعيد عن التعقيد، خال من كثرة العلل والخلاف النحوي التي أثقلت كثيراً من الكتب، ومن تأمل مسائله عرف أنه لا يعرف في فترته أسهل منه في تهذيب ألفاظ السابقين وعرضها في ثوب لا يشق على المبتدئين.

وقد ضم الكتاب أكثر موضوعات النحو ، وكان النحو قديماً يضم أبواب الصرف إضافة إلى بعض المواضيع الصوتية ؛ فقد ضم 145 باباً، كل ذلك بعبارة سهلة واضحة ، وأبواب منسقة ، وشاع هذا الكتاب بين العلماء والدارسين ، ولقي إقبالا واسعا بلغ من الشهرة والقبول مبلغاً لم يبلغه كتاب آخر، حتى اعتبره الإمام المجتهد ابن حزم الأندلسي أنموذجاً للكتاب المنهجي المتكامل

الذي يستغني به طالب العلم عن غيره من المصنفات ، بل جعل دراسته وفهمه كافيا لولوج باب الاجتهاد (موساوي ، مقدمة كتاب الجمل، 2025، ص:15)

فهو بلا شك من المصنفات الرائدة المؤلفة في تقريب علم النحو وتذليل مسائله على المتعلمين ، وهو ما يفسر إقبال العلماء عليه شرحا واختصارا ونظما ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليعد إلى المقدمة المذكورة آنفا ، كل هذه العوامل هي التي دفعت العلامة ابن أبي شنب إلى تحقيقه وإخراجه إلى عالم المطبوعات ، وبقيت نسخته هي السائدة بين يدي طلبة العلم لمدة قاربت الستين عاما ، إلى أن أعاد الدكتور علي توفيق الحمد تحقيقه وطباعته غير أن هذه الطبعة لم ترق للمهتمين بالتراث لما احتوت عليه من أخطاء تنزهت عنها طبعة ابن أبي شنب ، فقرر المحقق نبيل موساوي الجزائري إعادة طبع الكتاب مستعينا بـ 18 نسخة خطية جلبها من أماكن مختلفة ، ويقول عن إعجابه بالكتاب وتعيين إعادة تحقيقه : « ومن شدة إعجابي بكتاب الجمل واهتمامي الزائد به تصفحت طبعته هذه [يقصد طبعة الحمد] بعناية خاصة ، وأمعنت النظر فيها بلهفة وشغف ، وأعدت قراءة نصوصها قراءة متأنية كلمة كلمة... فهالني ما رأيت ؛ فقد وَقَعَ له من الأخطاء والسهو ، والزيادات التي ليست من أصل "الجمل" ما لم يخطر على بال ، فَقَدْ وَقَعَ فيما عاب به طبعة العلامة ابن أبي شنب ... وهذا شيء يؤسف له أن أكثر الأخطاء التي عاب بها طبعة ابن أبي شنب هي الصواب ، كما سترى في هوامش التحقيق ، فاقتنعت حينها بضرورة إعادة تحقيقه تحقيقا علميا متقنا» (موساوي ، مقدمة كتاب الجمل، 2025، ص:8)

5. منهج ابن أبي شنب في تحقيق " الجمل "

أما منهج ابن أبي شنب المحقق في إخراج كتاب " الجمل " للزجاجي فأوجزه في خطوات :

الخطوة الأولى (جمع النسخ) : إذ جمع نسخ الكتاب من أماكن تواجدها ، وبالنظر إلى الظروف التي كانت تمر بها الجزائر في الفترة التي حُقق فيها الكتاب ، يعد تجميع ابن أبي شنب لثلاثة منها عملا مضنيا في وقت وسائل الاتصال فيه غير ميسرة كما هي عليه اليوم ، والبحث في المكتبات العالمية من أشق الأعمال على المحقق ، ثم شرع في وصف هذه النسخ بدقة متناهية ووصف خطوطها ومسطرتها ومكان وجودها في المكتبات وأرقامها في فهارس هذه المكتبات والفروق بينها وكيف أنه اتخذ أصحها أما لباقي النسخ ؛ فوصفها وصفا دقيقا وهذه هي بترتيب المحقق :

أ - نسخة المكتبة الدولية بالجزائر تحت عدد 38 بخط مغربي حسن مشكول بتاريخ 745 فيها 128 ورقة (لاكما ذكر في فهرسة المكتبة) طولها 200 ميليمتر وعرضها 133 في كل صفحة 15 سطرا.

ب - نسخة ثانية في المكتبة نفسها تحت عدد 39 بخط مغربي يمكن أن يكون من القرن العاشر بما نقص في عدة مواضع لم ينه عنه في فهرسة المكتبة وقد أحرق المداد بعض الأوراق وفيها 91 ورقة طولها 313 مليمترا في 148 وفي كل صفحة 21 سطرا .

ج - نسخة يقول المحقق أنه استنسخها منذ عشرين سنة عن أصل صحيح على ما يظهر من المقابلة مع غيرها. (الزجاجي، الجمل، 1927، ص:15)

وبديهي أن هذه النسخ ليست هي النسخ الوحيدة لكتاب "الجمل" إذ يتعسر جمع جميع النسخ الماثلة في مكتبات العالم وفي هذا يقول شيخ المحققين عبدالسلام هارون : « لعل من البديهي أنه لا يمكن بوجه قاطع أن نعثر على جميع المخطوطات التي تخص كتابا واحدا إلا على وجه تقريبي ، فمهما أجهد المحقق نفسه للحصول على أكبر مجموعة من المخطوطات فإنه سيجد وراءه معقبا يستطيع أن يظهر نسخا أخرى من كتابه ، وذلك لأن الذي يستطيع أن يصنعه المحقق ، هو أن يبحث في فهارس المكتبات

العامة ، على ما بها من قصور وتقصير؛ وهو ليس بمستطيع أن يبحث فيها كلها على وجه التدقيق ، فإن عددها يربى على الألف في بلاد الشرق والغرب ... ويبقى عليه بعد ذلك المكتبات الخاصة وليس يمكن المحقق أن يدعى إماماً تاماً بما فيها ، أوفكر في استيعاب ما تتضمنه من نفائس المخطوطات ، فليس وراء الباحث إلا أن يقارب البحث مقارنة مجتهدة ، بحيث يغلب على ظنه أنه قد حصل على قدر صالح مما يريد.» (عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، 1994، ص: 38).

أما التحقق من عنوان الكتاب واسم مؤلفه ونسبته إلى مؤلفه فكتاب " الجمل " طبقت شهرته الآفاق فلم يحتاج المحقق إلى بذل جهد يذكر في التحقق من عنوان الكتاب أو حشد الدلائل على نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، فالعناية به لم تنقطع من عصر المؤلف إلى عصر المحقق كما يشهد بذلك حاجي خليفة. (حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 1992، ص: 603/1).

الخطوة الثانية (مقدمة التحقيق) : وصدرها بترجمة للمؤلف ؛ فأتى على ذكر مولده مكانا وزمانا ، ونشأته وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته ومكانته بين أئمة النحو واللغة ، والملاحظ أنه إذا ذكر كتابا للزجاجي ذكر معه من أورده من أصحاب الفهارس كابن خير الاشبيلي صاحب الفهرس المعروف باسمه ، أو حاجي خليفة صاحب كشف الظنون أو غيرهما ، ويذكر مكان تواجد نسخه في المكتبات العالمية ورقمها في فهارس مكتباتها ؛ فيذكر مثلا من مؤلفاته كتاب الزاهر في معاني الكلام فيقول : « الزاهر في معاني الكلام الذي يستعمله الناس اختصره من الزاهر لأبي بكر محمد الأنباري وشرحه وحذف شواهده وختمه بباب في نوادر اللغة وشواذها ويسمى أيضا اختصار الزاهر ، ومختصر الزاهر منه نسخة في المكتبة الخديوية ج 4 ص 260 » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 11).

ثم يعرج على كتاب " الجمل " نفسه وما قيل فيه ، وما قيل في بركته على المشتغلين به ، وحظوة مؤلفه فيه ومن اعتنى به من العلماء ، فيذكر أهم شروحه واحدا واحدا ، وأماكن تواجدها وأرقامها في المكتبات العالمية كعادته في تحري الدقة ، وأورد مثلا فقط من كلامه على هذه الشروح وهو شرح ابن خروف فيقول : « ومنها شرح أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف الأندلسي المتوفى نحو سنة 610 هـ منه نسخة في برلين عدد 21 » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 13).

الخطوة الثالثة (خدمة النص المحقق) : قام بضبطه بالشكل الكامل ، وشرح غوامضه وخرّج آياته وشواهد الشعرية ، ودلّ على أسماء الأماكن والمواضع المذكورة فيها ولم يفته حتى تخريج الأمثال ، مما يدل على باع طويل في معرفة الشعر وتراجم الشعراء ، ففي تخريجه للآيات يذكر اسم السورة ورقمها ويتبعها برقم الآية فاصلا بين الرقمين بحمزة ممدودة (آ) في إشارة إلى الآية فمثلا في قوله تعالى : (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) يكتب بعدها في المتن « سورة القمر 54 وآ 34 » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 46).

أما تخريج الشواهد الشعرية فأطال النفس فيه جدا ، فيشرح البيت ومحل الشاهد فيه ومناسبة القصيدة ونسب الشاعر وطبعة الديوان أو مخطوطته إن كان لم يطبع بعد ، واختلاف شراح الشواهد الشعرية في شرحه ؛ يقول في تخريج بيت كثير عزة

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ *** وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشَلَّتْ

« البيت لكثير عزة من قصيدة قالها في صاحبته وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي، أحد عشاق العرب المشهورين وشاعر مفلق ، وكان رافضيا كثير التعصب لآل أبي طالب توفي سنة 105 بالمدينة وديوانه لم يطبع إلى الآن ، قوله رمى فيها الزمان أي أصابها وأدركها بمصيبة وبليّة ومكره أو ألقاه في علة... » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 36) وهكذا يمضي في شرح البيت وينقل بعض كلام الأعلام الشتمري في شرحه لشواهد سيبويه .

ورغم شهرة الشاعر قيس بن ذريح مثلاً إلا أن ديوانه لم يطبع في أيام تحقيق ابن أبي شنب لكتاب "الجميل" إلا أنه - لاطلاعه الواسع على محتويات المكتبات العالمية - يشير إلى مكانه فيها فيقول في نهاية تخرجه للبيت

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا *** وَكُنْتُ عَلَيْهَا بِالْمَلَأِ أَنْتَ أَقْدَرُ

« وديوان شعره موجود بشرح أبي عبد الله محمد الراشدي الأموي في الاسكوريال وفي برلين ولم يطبع إلى الآن » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 154)

ويوجه أحياناً إعراب الأبيات المشككة ؛ يقول في بيت زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة *** وإن خالها تخفى على الناس تعلم

« مهما اسم شرط جازم مبتدأ وتكن مجزوم به وعند امرئ أي شخص ومن خليقة أي طبيعة اسم تكن ومن زائدة ولو خالها لو ظنها وتخفى تستتر جملة في محل مفعول خال الثاني وتعلم مجزوم جواب له وخبر تكن .. » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 222) ويلاحظ أنه لم يتعرض للخلافات النحوية لأنه أراد أن يضبط المتن فقط في كتاب أراد مؤلفه أن يجعله سهل الحفظ ، فلم يثقله المحقق بالخلافات التي محلها الكتب المبسطة الشارحة لهذه المتن .

كما لم يفته تخرج الأمثال العربية من مظانها فعندما أورد المؤلف المثل (في بيته يُؤتى الحكم) نرى المحقق يأتي بقصة المثل كاملة من كتاب مجمع الأمثال للميداني ، ويشير إلى الجزء والصفحة (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 132) ، ولا يترك اسم موضع أو مكان ورد في شاهد من شواهد الكتاب إلا وأتى منه بخبر يقول في التعليق على بيت جرير

ياحبذا جبل الريان من جبل *** وحبذا ساكن الريان من كانا

« قوله جبل الريان هو في طريق البصرة إلى مكة والريان جبل ببلاد طي لا يزال يسيل منه الماء وجبل آخر أسود عظيم ببلاد طي أيضاً » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 122)

وإمعاناً منه في التثبت يرد كل معلومة إلى مصدرها ، فنراه مثلاً لا يكتفي بما يذكر المؤلف بل يقف على مظانه بنفسه ؛ كقوله معلقاً على قول الشاعر:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها *** خطانا إلى أعدائنا فنضارب

« البيت الشاهد غير موجود في ديوانه ، ولكن هكذا روي هذا البيت في كتاب سيبويه وفي خزانة الأدب للبغدادي. » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 223)

ولأمانته العلمية إذا أحس بالتقصير في جانب من الجوانب سارع إلى الاعتراف بذلك فهذا هو يقول مثلاً لا أعرف قائل هذا البيت والمعنى ظاهر (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 195).

أما تبسيطه للمعاني بطرائق مختلفة فلا يدخر جهداً في ذلك فهو يلح أحياناً في شرح بعض معاني الألفاظ ، بل إنه يلجأ إلى استعمال العامة للتوضيح ويشير إلى ذلك. كقوله معلقاً على قول الشاعر:

تكلفني سويق الكرم جرم *** وما جرم ، وما ذاك السويق ؟

« قوله جرم اسم قبيلة ، وتشويق الكرم الخمر ، يقول هذا محتقراً لجرم مستنكراً لهم شرب الخمر. وسمي الخمر سويقاً لانسياقها في الحلق ، لأن السويق يُشرب في الأكثر ويؤكل ، والسويق دقيق الشعير المقلو ، قد يَلْتُ أحياناً بالدسم أو العسل أو السكر وهو المسمى في بلاد الجزائر بالروينة » (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 308).

أما اضطلاعاه في علم النحو وإطلاعه الواسع على مصادره فله في ذلك القدر المعلى ، نستشف ذلك من مناقشته وتعليقه على قول المؤلف عقب ذكر هذا البيت :

ألم يأتيك و الأنباء تنمي *** بما لاقت لبون بني زياد

حيث قال مؤلف الكتاب الزجاجي : «سكن الياء في موضع الجزم ، لأنه كان يضمها في موضع الرفع ، وينصبها في موضع النصب» (الزجاجي، الجمل، 1927، ص:373) فتعقبه المحقق بأن الياء في يأتيك إشباع لكسرة التاء لا كما زعم الزجاجي وأن إشباع الحركة في الضرورة موجود عندهم.

ومن فرط دقته وإطلاعه الواسع على كتب التراث نراه ينبري لتصحيح ما نسب في كتاب سيبويه إلى أحد الشعراء ويصحح هذا الخطأ ففي تخريجه لبيت شعري ورد في الكتاب دون نسبة :

لقد علمت أولى المغيرة أنني *** لحقت فلم أنكل عن الضرب مسمعا

علق بقوله : « هو المزار الأسدي كذا نسب في كتاب سيبويه [ج1ص99] والصحيح هو للملك بن زغبة الباهلي وهو شاعر جاهلي.» (الزجاجي، الجمل، 1927، ص:136)

الخطوة الرابعة (الفهارس الفنية) : الفهارس مفاتيح الكتب ولا يستطيع باحث أن يهتدي إلى ما يريده إذا لم يكن هناك فهارس فصنعها ضرورة علمية ملحة ، لأن إخراج الكتاب دون فهارس يعتبر عملاً ناقصاً يقول عبد السلام هارون: « وللفهارس المقام الأول بين هذه المكملات إذ بدونها تكون دراسة الكتب - ولا سيما القديمة منها- عسيرة كل العسر، فالفهارس تفتش ما في باطنها من خفيات يصعب التهدي إليها، كما أنها معيار توزن به صحة نصوصها بمقابلة ما فيها من نظائر قد تكشف عن خطأ المحقق أو سهوه وقد أصبح عصرنا الحديث المعقد في حاجة ملحة إلى اختزال الوقت وإنفاق كل دقيقة منه في الأمر النافع.» (عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، 1994، ص:90) وهذا ما دأب محمد بن أبي شنب على التزامه في تحقيق كتاب "الجمل" ، فصنع ثلاثة فهارس جعل أولها للموضوعات فدلّ به على مواضع مباحث الكتاب في صفحاته بتفصيل مسهب استغرق سبع صفحات كاملة في كل صفحة عمودين ، أما الثاني فخصّ به أعلام الشعراء الوارد ذكرهم في ثنايا الكتاب ورتبه ترتيباً أبجدياً مع تتبع جميع المواضع التي ورد ذكر الشاعر فيها ، أما الفهرس الثالث فرتب فيه القوافي على حرف الروي من كل قافية مع الإشارة إلى بحر كل بيت تنتمي إليه هذه القافية بدءاً بالطويل وانتهاءً بالمتقارب.

أماعلامات الترتيب فلم تُيسّر مطبعة جيل كاربونل (jules carbonel) الفرنسية التي طبع فيها كتاب " الجمل" وضع علامات للترتيب في أماكنها كما هو متعارف عليه اليوم ، وهو اضطراب شائع في المطبوعات العربية في ذلك الوقت جعل وزارة المعارف المصرية تصدر قراراً سنة 1930 تضبط فيه علامات الترتيب ، أي بعد طبع ابن أبي شنب لكتابه بثلاث سنوات ، فعوّض المحقق هذه العلامات بأنجم بين جمل النص بدل الفواصل وجعل النقاط في آخر كل فقرة ، كما استعمل الاختصارات الشائعة كالتى استعملها صاحب القاموس المحيط فنراه مثلاً يشير إلى الجمع بالحرف (ج) يقول في تخريج بيت ذي الرمة:

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى *** ثلاث الأثافي والرسوم البلاقع

« قوله الأثافي ج أثفية وهو الحجر الذي توضع عليه القدر والرسوم ج رسم أو بقية الأثر أو مالا شخص له من الآثار ، والبلاقع ج بلقع القفر ... »(الزجاجي، الجمل، 1927، ص:142)

كل هذا العمل الذي قام به المحقق والعناء الذي تجشمه صاحبه أدب جم لا يفارقه ، وتجرد عن الإعجاب بالنفس لا يساوره ، فتراه في تقديمه للكتاب يُعَدُّ العودة إلى المراجع وشرح الشواهد منها ونسبتها إلى قائلها وذكر شيء من تراجمهم من باب التطفل على قرائح العلماء ! يقول في مراجعه التي اعتمدها لشرح الشواهد الشعرية : «هذا وقد تطفلنا في شرح الشواهد وتسمية القائل مع ذكر ترجمته مختصرة مستمدين بكتب الأئمة الأعلام مثل لسان العرب لابن منظور وخزانة الأدب للبغدادى والمقاصد النحوية للعيني وشرح شواهد المغني للسيوطي وشرح أبيات كتاب سيبويه للأعلم الشنتمري» (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 16)

ناهيك عن أمانته إذ يذكر في نهاية تحقيقه لكتاب "الجمل" أنه نسي أن يذكر في المقدمة أن أحد المستشرقين الألمان قد طبع مختصرا لكتاب "الجمل" وخرّج جزءا من شواهد لا يتعدى الثلث ، ورأى إغفال ذلك من الإخلال بالأمانة العلمية فيقول : « قد فاتنا سبحان من لا يسهو ولا ينام أن نذكر في ديباجة هذه الطبعة أن المستشرق الألماني يوهانس بولف طبع في ليسبك سنة 1904 مقالة افتتاحية مشتملة على 47 صفحة من القطع الثمني لخص فيها كتاب "الجمل" وترجم باللغة الألمانية الأربعة والسنتين شاهدا الأولى فقط ، أي إلى ص 168 من طبعتنا هذه ولم ينبه عن تركه باقي الشواهد» (الزجاجي، الجمل، 1927، ص: 383)

5. خاتمة

إن ثقافة ابن أبي شنب وإتقانه لبعض لغات الغرب وحصوله على أول دكتوراه في الجزائر وأخذه عن أساطين التحقيق من المستشرقين واشتراكه مع بعضهم في تحقيق بعض الكتب ؛ كل هذا أهله أن يعد من أرباب هذا الشأن وهو ما تمثل جليا في تحقيقاته لكتب التراث ومنها كتاب "الجمل"

وبالجمل فالمحقق ابن أبي شنب من الأفذاذ الذين قل أن يجود الزمان بمثلهم ، شهد له الأبعاد قبل الأقارب من أرباب الصناعة التحقيقية سواء من المستشرقين الذين حلّوه مكانة عالية أمثال الفرنسي هنري بيرس والألماني فريتس كرنكو (كما يذكر الزركلي في أعلامه) ، وأومن المحققين العرب أمثال الدكتور محمد محمود الطناحي الذي أثنى عليه ثناء عطا في مدخله إلى نشر التراث العربي... وما رصدته في هذه العجالة من منهجه في التحقيق ما هو إلا غيض من فيض... رحم الله الجميع برحمته الواسعة ونفعنا بما تركوا.

المراجع

- (1) خير الدين الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين ، بيروت - ط : 7 - 1986
- (2) الزجاجي - كتاب الجمل - تح : محمد بن أبي شنب - مطبعة كاربونل ، الجزائر - ط : 1 / 1927
- (3) سركيس ، يوسف إلبان - معجم المطبوعات العربية والعربية - مطبعة سركيس ، القاهرة - ط : 1 / 1928
- (4) عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت - ط : 2 / 1980
- (5) عبدالسلام هارون - تحقيق النصوص ونشرها - مكتبة السنة ، القاهرة - ط : 5 / 1994
- (6) أبو عمران الشيخ - معجم مشاهير المغاربة - المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر - ط : 1 / 1995
- (7) أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - دار الغرب الاسلامي ، بيروت - ط : 1 / 1998
- (8) محمد كرد علي - المعاصرون - دار صادر ، بيروت - ط : 2 / 1993
- (9) موساوي ، عبدالله نبيل - مقدمة كتاب الجمل في النحو - دار الميراث النبوي ، الجزائر - ط : 1 / 2025